الحفاظ على البيئة

من منظور الشريعة الإسلامية

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله وبعد؛؛

من الموضوعات المهمة، والتي أولتها الشريعة الإسلامية عناية فائقة أمر البيئة والحفاظ عليها، واعتبار هذا أصل وركن ركين، من أركان الشريعة، وأن الإفساد في هذا الجانب، هو من قبيل الفساد في الأرض قال تعالى: (إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ) (المائدة ٣٤)

بداية مفهوم البيئة:

المباءة: منزل القوم في كل موضع، وتبوَّأْتُ منزلاً؛ أي نزلتُه، وبوَّأت للرجل منزلاً وبوّأته منزلاً بمعنى، أي هيَّأته ومكَّنت له فيه، وقال تعالى: {وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ} يونس ٩٣، وفي التزيل كذلك وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ **(٥٨العنكبوت)** والبيئة في الاصطلاح: الوسط أو المكان الذي يعيش فيه الإنسان.

وقديما قال ابن خلدون: "الإنسان ابن بيئته" وتلك المقالة: تعكس حقيقة التأثير العميق والمتبادل بين الفرد والظروف المحيطة به، والتي تشمل الجوانب الاجتماعية والثقافية والطبيعية. وقد تناول هذه الفكرة عدد من المفكرين عبر التاريخ، أبرزهم ابن خلدون، الذي ربط بين البيئة الجغرافية وطباع سكانها، فكلما كان المحيط صالحا، وأفرده على حب وود ووئام، والمكان فيه شيء من الجمال النسبي، في التنظيم والترتيب وحسن الشكل وجمال المظهر، كلما انعكس هذا على حال أهل تلك البيئة وهذا المحيط الجغرافي، ونطق به لسان حالهم ومقالهم، وقديما قالوا: كل إناء ينضح بما فيه!

وقال بعض الشعراء يدلل على حسن مقالته وخبث مقالة صاحبه وأثر البيئة في كل:

سَتَسْمَعُ مِنِّي صالِحاً ما لقِيتَنِي ... وَأَسْمَعُ مِنْكَ الدَّهْرَ ما لَيْسَ يَصْلُحُ

كِلانا وَفِيٌّ بِالَّذِي فِيهِ كامِنٌ ... وَكُلُّ إِناءٍ بِالَّذِي فِيهِ يَنْضَحُ

كيف نحافظ على البيئة وواجبنا نحوها؟

الحق أن محيطنا الأرضي بات مثقلا بالمشكلات النفسية والعضوية، وتحقق فينا قول الحق ﷻ **ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ** (الروم ٤١)

ولما كان المنهج الإسلامي منهج متكامل، يعني بالمظهر والجوهر، والروح والمادة، فقد عني بأمر البيئة، ويمكننا أن نلمسها من خلال تلك الملامح التالية، وذلك من خلال ما يلي:

١- الحفاظ على البيئة جزء أصيل من العقيدة الإسلامية

لا شك أن الإسلام جاء لإسعاد البشرية، وحتى تكون الصورة كاملة، ناصعة، متكاملة الأركان، فقد بين النبي ﷺ، أن كمال الإيمان لا ينحصر فقط في الصلاة أو الأركان الخمسة، وإنما مفهوم الإيمان أشمل وأوسع وأعظم، حيث جعله النبي ﷺ أشبه ببناء عظيم، له أكثر من سبعين بابا ولكل باب قسم هائل يندرج تحته، وذلك في قول سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ »(صحيح مسلم) فتلك الشعب بمثابة الأقسام أولها وأعلاها التوحيد، والتفريد والتجريد، وأقلها احترام الطريق، وبذل الوسع والجهد في الحفاظ على المحيط البيئي والمجتمعي!

وفي الحديث إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ يُحِبُّ الطِّيبَ نَظِيفٌ يُحِبُّ النَّظَافَةَ كَرِيمٌ يُحِبُّ الْكَرَمَ جَوَادٌ يُحِبُّ الْجُودَ فَنَظِّفُوا أُرَاهُ قَالَ: أَفْنِيَتَكُمْ وَلَا تشبَّهوا باليهود "(الترمذي بسند حسن) فالأمر بالنظافة من لوازم الإيمان ونظافة المحيط البيئي من أكثر الأمور التي أوجبتها الشريعة

ولما كان الأمر كذلك فإن الإسلام قد وضع المنهج للتعامل مع البيئة وحمايتها وذلك من خلال :

أولا: التشجير: فالناظر إلى كتاب الله ﷻ يجد أن القرآن قد احتفى بأمر الزرع والنبات، وأن اللون الأخضر من الألوان المحببة في الشريعة، وله رمزية ودلالة في حضارتنا الإسلامية، فهو لون الجنة، ولباس أهلها، وهو اللون الذي يجلب السرور والبشر على النفس.

يقول الحق ﷻ: الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ (يس، ويقول سبحانه وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ **(١٤١ الأنعام)** وقد حرص الإسلام على الغرس والزرع والتشجير، قال ﷺ مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَزْرَعُ زَرْعًا، أَوْ يَغْرِسُ غَرْسًا، فَيَأْكُلُ مِنْهُ طَيْرٌ أَوْ إِنْسَانٌ أَوْ بَهِيمَةٌ، إِلَّا كَانَ لَهُ بِهِ صَدَقَةٌ " (المسند بسند صحيح) وهذا حديث عظيم جامع من جوامعه ﷺ، يحض فيه على الزرع والغرس، ويقول ما من مسلم يغرس غرسا أو يزرع أو يشجر، من مال حلال طيب، فإن الله طيب لا يقبل إلا الطيب، وعلى أرض مملوكة له، فيأكل منه الطير، أو الناس والأنعام والدواب والهوام، فيحيي به الروح، ومثله بناء الأسبلة والسقايات، وعمل بيوت الطيور، ونثر الحبوب حسبة وصدقة لله، فكان له بذلك العمل عظيم الأجر في الدنيا وفي الآخرة، وهو من أعظم الأعمال التي ينتفع بها العبد في حياته وبعد مماته.

ثانيا: الاهتمام بالمساحات الخضراء والإكثار منها:

وهو أصل عظيم وأساس من أسس بناء المدن، فالناظر إلى كتب الحضارة والعمران، يجد أن من شروط بناء المدن عمل الميادين الواسعة، والحدائق الغناء، فعند بناء القاهرة مثلا، يحدثنا المقريزي وغيره ممن آرخ لها ولعمرانها، عن الميادين الفسيحة، والمساحات الخضراء الشاسعة الواقعة على الخليج المصري، والخليج الناصري، والبرك والمتنزهات، مثل بركة الفيل أحد أجل وأهم وأعمر متنزهات القاهرة في العصرين المملوكي والعثماني، ويحدثنا كذلك عن المناظر على الخليج، وعلى أشكال البيوت والدور، في مصر وريفها وصعيدها، والتي كانت برغم بساطتها، بيد أنها حوت العديد من لمسات الجمال والفن، مثل: المساحات الخضراء، وأن تكون على ناحية البحر، وأن يجعلها المعمار في الناحتين، البحرية والقبلية والشرقية ما امكن لذلك السبيل، ويجعل لها مجلسين أو مقعدين، أحدهما البحري في فصل الصيف، والأخر قبلي في فصل

الشتاء، مع ضرورة غرس بعض الشجار كالتوت والجميز وغيرها من الأشجار المثمرة، كثيفة الورق والجذوع والأغصان، حتى ينعم بظلها وبثمارها، الأمر نفسه شاهدنها ولا زلنا نلمسه في بعض قرى مصر، قبل هذا الزحف التتري على المحيط الأخضر!

ولعل هذا يدل دلالة واضحة على توافق الشريعة مع أسس الحضارة، وأنهما يكملان بعضهما البعض، وأن الحضارة هي الوجه الأكمل لنصوص الشريعة، كما أن الشريعة ليست بمعزل عن علوم الطبيعة والطب وغيرها، فقد ثبت بالعلوم والتجربة أن لتلك النباتات عظيم الأثر على التوازن البيئي وصحة الكائن الحي وذلك من خلال ما يلي:

أ- توفير القدر اللازم من الأكسجين اللازم لكل الكائنات، مع التخلص من أضرار ثاني أكسد الكربون، خصوصا في وسط هذا الكم الهائل من الملوثات

ب- تثبيت التربة والحفاظ عليها ومنعها من الانجراف أو التدمير

ت- توفير القدر اللازم من الظل، ومن الثمار، ولذا من الأفكار النافعة التي تقدم بها بعض العلماء مسألة زراعة الشجر المثمر على الطرق العامة وعلى ضفاف نهر النيل وروافده، كأحد الدعائم والحلول البديلة لمقاومة التلوث البيئي وكذا تدعيم الاقتصاد وتوفير بيئة ظليلة

ث- الامتاع البصري، وهو ركن أصيل في الشريعة الإسلامية وورد في الخبر، وضعفه البعض وأراه ليس من كلام سيدنا رسول الله ﷺ لعدم قوة السند لكن يوافق الشريعة ونصوصها " ثلاثة يذهبن الحزن الماء والخضرة والوجه الحسن" وقال أبقراط: من لم يبتهج لرؤية الربيع، ولا يتروع بنسيم أسحاره فهو عديم حس أو سقيم نفس، وكتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أمير الأجناد: مروا الناس أن يخرجوا إلى الصحارى أيام الربيع فينظروا إلى آثار رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها

ثالثا: الحفاظ على الماء وعدم تلويثه:

الماء أصل كل شيء حي بنص القرآن قال ﷻ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ (٣٠الأنبياء) فالماء كنز ثمين، وكما قالوا: قطرة مياه تعني الحياه، فعلى العاقل المسلم الحق، أن يعلم أن الماء بقدر، كما بين الحق، وأن الحفاظ عليه من الأمور التي حضت عليها الشريعة الغراء، وعدم تلويثه أو تعطيل جريانه، أو القاء الخبث فيه مما يفسد الحرث والنسل والزرع واجب ديني ووطني، ولذا فقد نهى الإسلام عن تلوث المياه بأي

شكل من الأشكال، ففي الحديث الشريف، اتَّقُوا الْمَلَاعِنَ الثَّلَاثَ: الْبَرَازَ فِي الْمَوَارِدِ، وَالظِّلِّ، وَقَارِعَةِ الطَّرِيقِ " (سنن ابن ماجة وحسنه البعض لشواهد له في حديث الإمام أحمد وقيل روي مرفوعا) وفيه حض وتوجيه على تجنب المواطن التي يلعن فيها الإنسان من الله أولا ثم من الناس، وبينها الشرع الحنيف بموارد الماء كالترع والأنهار، وهذا ينطبق على مشروعات الصرف الأهلي أو الصناعي التي تنصرف إلى موارد الماء كالنيل وغيره، وفيه استحقاق للطرد من رحمة الله، كما أنه يوجب لعن الناس، لأنه يؤذي أبدانهم ويكدر معايشهم، كذا الظل، ويقصد به الاستراحات العامة، وقارعة الطريق أي أماكن مرور الناس، لذا قال النبي ﷺ إماطة الأذى عن الطريق صدقة.

وفي الحديث كذلك عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: " لَا يَبُولَنَّ أَحَدُكُمْ فِي الْمَاءِ الدَّائِمِ، ثُمَّ يَتَوَضَّأُ مِنْهُ " (المسند بسند صحيح وصحيح مسلم بلفظ آخر)

الإحسان إلى البيئة يكفر الذنب ويرفع الدرجات!

نعم البيئة والإحسان إليها يرفع الدرجات ويكفر الذنوب، ويأتي تحت باب إحسان جوار نعم الله كما بين النبي المصطفى ﷺ قال رسول الله ﷺ: "أَحْسِنُوا جِوَارَ نِعَمِ اللهِ تعالَى ولا تُنَفِّرُوهَا فَقَلَّمَا زَالَت عن قَوْمٍ فَعَادَتْ إليهم" (الطبراني وغيره) والحديث وإن ضعفه البعض لعلة في سنده، فإنه صحيح المعني ويوافق قول الله ﷻ **وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١١٢ النحل)** وفي الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَقَدْ رَأَيْتُ رَجُلًا يَتَقَلَّبُ فِي الْجَنَّةِ فِي شَجَرَةٍ قَطَعَهَا مِنْ ظَهْرِ الطَّرِيقِ كَانَتْ تُؤْذِي النَّاسَ .» (صحيح مسلم) وفي رواية عند البيهقي وغيره «وَجَدَ غُصْنَ شَوْكٍ عَلَى الطَّرِيقِ، فَأَخَذَهُ فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ، فَغَفَرَ لَهُ والحديث الثاني يفسر الأول، فالرجل أبقى على جميع الشجرة وهذا أغلب الظن، وإنما أزال منها ما يؤذيها ويؤذي الناس، فربما قطعها الناس بالكلية لأنها تحول بينهم وبين ذهابهم ورواحهم، فأزال الرجل الضرر، وهو ما يسمي دفع الضرر بضرر أخف، فأفاد البيئة في صورة الحفاظ على الشجرة الأم، وإنما أزال منها الفرع الفاسد، وكذا حفظ للناس أمر معايشهم!

ثالثا: تنمية الثورة الحيوانية:

من أهم الأركان التي تسهم في الحفاظ على البيئة خصوصا البيئة المصرية التي تقوم في الغالب على الزراعة وتربية الماشية وما شابه، ولذا فإن الإسلام يدعو إلى التنمية والاستثمار، والحفاظ على هذا الكنز الثمين من خلال ما يلي

١- احترام الحيوان، كون كائن له احساس وشعور، يحس ويتألم، وفي الحديث الشريف مَنْ لَا يَرْحَمُ، لَا يُرْحَمُ(المسند بسند صحيح) وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: "دنا رجلٌ إلى بئرٍ فنزل، فشرب منها، وعلى البئر كلبٌ يلهثُ ، فَرَحِمَهُ، فَنَزَعَ أحد خُفَّيْهِ فَسقَاهُ، فشكرَ، الله له فأدخله الجنة" رواه ابن حبان في صحيحه، ورواه مالك والبخاري ومسلم وأبو داود أطول من هذا (الترغيب والترهيب للمنذري)

ومن مسائل الإمام أحمد رضي الله عنه لما سئل عن السمكة تلقى في النار حية؟ قال: لا!! وفي الحديث الشريف إنَّ لنا في البَهائِمِ أجْرًا؟ قالَ: في كُلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أجْرٌ.(البخاري) وهذه الجملة تعم كل حيوان من كلب أو قط أو جمل أو بقرة أو شاة، وفي الحديث عُذِّبَتِ امْرَأَةٌ في هِرَّةٍ سَجَنَتْها حتَّى ماتَتْ، فَدَخَلَتْ فيها النَّارَ، لا هي أطْعَمَتْها ولا سَقَتْها، إذْ حَبَسَتْها، ولا هي تَرَكَتْها تَأْكُلُ مِن خَشاشِ الأرْضِ.(البخاري)

وفي قول الله ﷻ(وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ) اسْتَنْبَطَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْهَا حَظْرَ قَتْلِ الْكِلَابِ فَقَالَ: " لَوْلَا أَنَّ الْكِلَابَ أُمَّةٌ مِنَ الْأُمَمِ لَأَمَرْتُ بِقَتْلِهَا " الْحَدِيثَ. رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مُغَفَّلٍ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ.

وَقَدِ اسْتَدَلَّ الصحابة بِالْآيَةِ عَلَى وُجُوبِ الرِّفْقِ بِالْحَيَوَانِ وَتَحْرِيمِ تَعْذِيبِهِ

٢- عمل محميات طبيعية للحفاظ على النوع، وكانت أول محمية طبيعية في الإسلام الحرمين الشريفين، قال ﷻ **أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا**(القصص ٥٧) وقوله سبحانه **أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ (العنكبوت٦٧)**

وقوله سبحانه **يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ (المائدة٩٥)**

حتى في الحرب أمر النبي ﷺ بالحفاظ على الثمر والشجر فقال ﷺ كان رسول الله ﷺ إذا بعث جيشًا من المسلمين إلى المشركين قال: انطلق باسم الله، وفي سبيل الله، وعلى ملة رسول الله، لا تقاتلوا القوم حتى تحتجوا عليهم، فادع القوم إلى شهادة ألا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، والإقرار بما جاء من عند الله، فإن أجابوكم: فإخوانكم، وإن أبوا: فناصبوهم حربًا، واستعينوا بالله تعالى، ولا تقتلوا وليدًا، ولا طفلًا ولا امرأة، ولا شيخًا كبيرًا، ولا تغورن عينًا، ولا تعقرن شجرًا إلا شجرًا يضر بكم- يعني: تغدروا يمنعكم قتالًا- ولا تمثلوا بآدمي ولا بهيمة، ولا تغلوا (السنن وابن حبان وكتب السير) أي إنسانية تلك حتى في الحرب، فما بال بعضنا يتعامل مع الشجر والحجر والبيئة وكأن بينه وبينها عداوة، إن من جمال الحضارة الإسلامية أنها حضارة إنسانية في المقام الأول.

لقد خلف لنا المسلمون الأوائل كل معاني التحضر والإنسانية، فعبدوا الطرق للمسلم وغير المسلم حسبة لله، وبنوا الأسبلة للمسلم وغير المسلم، حسبة لله، وطهروا مجاري الماء للإنسان والحيوان والدواب حسبة لله، وأماطوا كل ألوان الأذى حسبة لله، وابتكروا بيوت الحمام والعصافير يضعون فيها القمح والغلال للطير وأن المنصور قلاوون بذل المال العظيم في قبته لطعام الطير وحدها! وما أردت أن أقوله إننا جميعا مسئولون أمام الله وأمام الشرع وأمام العرف والقانون عن حماية البيئة بكل مشتملاتها، وإنها من باب الأمانة كل في موقعه، ومن باب إنَّ اللهَ سائلٌ كلَّ راعٍ عمَّا استرعاه: أحفِظ أم ضيَّع حتَّى يسأَلَ الرَّجلَ عن أهلِ بيتِه

نسأل الله أن يحفظ بلادنا من كل سوء

كتبه وجمعه الفقير لعفو مولاه

الدكتور محمد سالم الصعيدي الشافعي الأزهري الأستاذ المشارك بالأزهر الأنور